الروح الإسلامي

لحضرة صاحب العزة الاستاذ عبد الله عفيفي بك
إمام الحضرة المكية

حضرة صاحب المعالى رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى ، حضرات الاخوان :

التضحية إلى أبعد حدود الفداء ، والاخلاص إلى أشف منازل الصفاء ، والسمو إلى الغاية التى لا غاية فوقها — هذه كلها روح الاسلام ، وطابع الإسلام ، بل هذه هى أول ما يواجه النظر من معنى الاسلام .

فالإسلام قبل أن يكون دينا محمديا ذا قواعد ومناسك وأصول وفروع كان منذ الأزل القديم رمز تضحية وغاية فداء ، وشعار سمو روحى منقطع النظير لا يرتقى إلى الاتصاف به إلا أولو العزم من الأنبياء والمرسلين والصديقين . فأيما نبى او رسول أو صديق استخلصه الله لنفسه فقد أسلم ، اى أسلم وجهه وقلبه لله ، وأخلص نفسه وقصده لله . وهذا الاسلام على هذا الوجه وبهذا الاعتبار ، وهو ما أراده الله منه حقا — هو أرفع ما يصل إليه الانسان من شرف الغاية ، وسناء الخلق ، وسمو الحياة .

لقد اصطفى الله ابراهيم أبا الأنبياء فى الدنيا وجعله فى الآخرة من الصالحين ، لأنه قال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين .

" وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " .

فالاسلام إذن عهد وميثاق يضع به الانسان روحه ونفسه وقلبه وقوله وعمله ورغائبه ومآربه وغضبه ورضاه فى ميزان الله ، ففى الله يحب ويكره ، وفى الله يرضى ويغضب لا تصرفه عنه سبحانه سطوة ولا صولة ولا منصب ولا جاه .

هذه العقيدة الأزلية إذن مرتقى صعب لا يبلغه الا الأصفياء ، ومن ثم سأل إبراهيم ربه أن يمنحه هو وولده القوة على أن يكونا مسلمين فقال " رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ " وكان من إسلام ابراهيم أن أمره الله بحمل طفله الوحيد وزوجه القانتة الى واد لا ماء فيه ولا زرع ولا شيء فيه ولا أحد فاحتملهما اليه حيث تركهما هنا لك بغير مئونة أو مجولة ثم أوحى إليه فى منامه أن يذبح هذا الولد العزيز بعد أن شب عن الطوق و بلغ معه السعى، فقام ليذبحه مطمئنا لأمر الله حتى افتداه الله. وهذا العهد الذى أخذه الله على ابراهيم، وأخذه ابراهيم على اسماعيل واسحاق وأخذه يعقوب على الأسباط من بنيه، هذا العهد هو الذى أخذه عيسى رسول الله على حواريه أن يسلموا وجوههم الى الله وأن يكونوا بهذا الاسلام أنصاره الى الله، وهذا ما حكاه الله بقوله الكريم "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ".

وهكذا كان الاسلام غاية سامية المرتقى لا يصل إليها إلا من صدق القصد وأرهف العزم ووطن النفس على التضحية وأخلص القلب والسريرة لله رب العالمين.

وشاء الله عز وجل أن يكون هذا الاسلام أو هذه العقيدة الأزلية دينا قائما يفيء اليه الإنسان فى كل زمان ومكان، فقدم الانسانية مرحلة جديدة وأعد الناس اعدادا جديدا وهيأ لهذه الرسالة العظمى محمدا صلى الله عليه وسلم، وزود هذا الرسول الكريم بكل الوسائل التى ترفعه الى المقام الأعلى فى العالمين، وجعل لذلك حياته الشريفة سلسلة من التضحيات التى تخشع من هولها الرواسيات تحملها صلى الله عليه وسلم لا كما تحملها الناس بل اعتنقها راضيا مطمئنا طيب النفس قرير السريرة وادع الضمير، وكان شعاره الأعلى قوله لربه تبارك وتعالى: ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى. وصقله الله سبحانه صقلا خاصا جعله خليقا بأن يحمل لواء هذه العقيدة الأزلية، وأن يسميه الله عز وجل أول المسلمين. ولحكمة سامية اختار الله العرب ليحملوا هذه الرسالة الى العالمين، فهذه الأمة لم تكن فى سواء الأمم المحيطة بها بل كانت دونها جميعا فى نواحى الفكر والعلم والثروة والاجتماع؛ وكانت حياتها كما نعلم بين بحر من الدم وبحيم من الأحقاد، ولكن أمرا واحدا هو الذى جعلها خليقة بهذا الشرف العظيم. ذلك هو ما تحمله بين أضلاعها من قوة القلوب وقوة النفوس وقوة الارواح مما يهيئها لاحتمال التضحية الإسلامية بعزم وصبر وإيمان.

وعلى الرغم مما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوة هؤلاء الناس من لدد الخصومة ونزق الجهالة، وسطوة العدوان، على الرغم من ذلك كله لما اطمأنت نفوسهم الى الإسلام اتخذوه كما اتخذه ابراهيم واسماعيل وموسى وعيسى والأسباط والحواريون عهدا وميثاقا على أن يسلموا وجوههم لله وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وكانوا أصدق الناس حين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت شجرة الرضوان على الموت، وكانوا أقوى الناس إيمانا وحينما سمعوا قول الله تبارك وتعالى " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ

لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " .

الروح الإسلامى إذن قوة ربانية يقذفها فى صدر المسلم فتملؤه صفاء و إخلاصا وسخاء بالنفس والجهد والمال فى رضا واطمئنان . ومأتى هذه القوة ومصدر هذا الروح هو أن يسلم المسلم وجهه إلى الله فإذا أسلم وجهه إلى الله فهو العظيم المترفع القوى الأبى العزيزومن هنا يقول الله تبارك وتعالى " وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ " .

إن هذه الشعائر الإسلامية التى فرضها الله إذا لم تكن وليدة هذا الروح السامى عدها الله نفاقا ورياء ،وردها فلم يكن لها نصيب من القبول .

لقد كان المنافقون فى العهد النبوى يصلون و يصومون و يؤدون الزكاة و يقدمون الصدقات و يفعلون ما يفعل سائر المسلمين ،ولكن ذلك كله لم يأت عن صفاء ولم يصدر عن إخلاص ولم يكن عن إيثار ، بل كان عن روح واهن وسريرة مظلمة وقلب مريض ، فلم يغنهم ذلك من الله شيئا ، ولم يقدمهم ذلك كله خطوة واحدة بل لعنوا أكثر مما لعن عبدة الأوثان وأعد الله لهم الدرك الأسفل من النار .

وفى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من يدعى به يوم القيامة رجل جمع القرآن ، ورجل قتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ! فيقول : بلى يارب . قال فما عملت فيما علمت ، فيقول كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ، ويقول الله تعالى له : بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل ذلك . ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد فيقول بلى يارب فيقول : فماذا عملت فيما آتيتك ،فيقول كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت و يقول له الله تعالى بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك ،ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله تعالى : فيما ذا قتلت ، فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ،فيقول الله تعالى كذبت وتقول له الملائكة كذبت بل أردت أن يقول فلان جرىء وقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله على ركبة أبى هريرة فقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " قال راوى الحديث شفى الأصبحى فأخبرت معاوية بهذا الحديث فقال قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديدا حتى ظن أنه هالك ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "

أيها الإخوان :

إن الروح الاسلامى على حقيقته هو أسمى روح أودعه الله صدر مخلوق. هو روح الانسانية السامية القوية المتجهة الى الحق والى الإحاء، ونحن نعلم إلى أى حد سما هذا الروح بالعرب بعد أن أكلتهم المتن ومزقتهم الأحقاد وأصبحوا على شفا حفرة من النار ، وكيف طويت لهم به الأرض ، ودانت لهم به نواحى الأمم وأصبحوا بعد الجهالة الجهلاء أعلام علم ، وأقطاب سياسة ، وكواكب هداية وأبطال فداء .

نحن الآن أحوج ما نكون إلى يقظة هذا الروح فى وضعه الصحيح روح الصفاء الشف، والتضحية الغالية ، والألفة المتينة ، والقوة المكينة ، والإخاء الوثيق .

نريد أن نبث هذ الروح الكريم فى نفوس النشء حتى نحصل على جيل إسلامى قوى يتمتع بمبدأ عظيم . والطفل بفطرته ليس بعيدا من الله، بل هو قريب منه بالطبع والغريزة . فلنرفع الحجب بينه وبين الله ولنفهمه دائما أن عليه من الله عين تراه ولنحدثه دائما عن الله وعزته وقدرته وقوته ، وناره وجنته ، ونوره ورحمته ، ولنفهمه أنه المغيث فى اللهفة والمعين فى النازلة والمسعد من الضنك ، والحافظ من الضياع .

وليعلم الآباء، وليعلم المربون أن الشخصية الصالحة والقدوة الكريمة أفضل وسائل التربية والتعليم . وقد كانت شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفذ فى قلوب أصحابه من قوله ، فليكن واجبهم أن يقتربوا من المثل الكامل حين يقتربون من أبنائهم ، والله يوفقنا جميعا إلى الخير ويهدينا سواء السبيل .

عبد الله عفيفى